# النشاط الثقافي في العالم

## انكلترا

رسالة لندن من شفيق مقار

### موجة افلام الجنس والعنف

في احصائية نشرت مؤخرا ، بمناسبة استقالة الامين العام للمجلس البريطاني للرقابة على الافلام ، ان الرقابة اجازت للعرض العام خلال سنة ١٩٧٣ ( حيث لم تكتمل بعد احصائيات عام ١٩٧٤ المنقضي ) ٤٧٧ فيلما ، بلغ عدد ما اجيز منها بشهادة ( X ) التي تعطى لافلام الجنس والعنف والرعب غير المسموح بمشاهدتها ( نظريا ) لمن هم اقل من ١٨ عاما ٢٤٩ فيلما ، مقابل ٢٢٨ من كافة الانواع الاخرى . وهو عدد ملفت للنظر فعلا . ولا نعتقد ان النسبة اختلفت عن ذلك كثيرا خلال عام ١٩٧٤ ، ان لم تكن زادت ، لصالح افلام الجنس والعنف .

فالمستهلك البريطاني ، بصرف النظر عن درجته في سلم تصنيف المستهلكين ، يلعق ــ فيما يبدو ــ بنهم كل ما تمتد به الايدي المنتجة من سلع فاسدة او مغشوشة لتسترد بها من جيبه ما تكون قد اعطته اياه من اجر طوال الاسبوع . والحقيقة ان الحياة ، منظورا اليها في ذلك الاطار الغبي بعض الشيء ، تبدو كما لو كانت لعبة « ثلاث ورقات » رخيصة ، او ( « Con Game » ) كما يقول الاميركيون ، يتحول فيها الفرد ، في كل مرة ، الى ذلك « الريفي » الذي نزل المدينة حديثا فتصيده النصابون لينظفوا جيوبه . والمشكلة ان اولئك النصابين هم هم من يهرول ذلك « المستهلك » الى اوكارهم صباحا ويعود منها مقصوم الظهر مساء ، ليبيع لهم حياته ساعة بساعة ، بمقولة انه يعمل . وحقيقة ان العمل هنا لم يتحول الى « شرف ، وواجب » وما الى ذلك من اشياء جميلة ، بل ظل ــ ببساطة فظة ــ حسبة بسيطة : ١ ــ ١ = صفر ، او « لا تعمل ومت جوعا ، وانت ( والله العظيم ) على الحالين حر ! » . فعملية النصب هنا ليست في هذه المرحلة ، بل في المرحلة التي تليها : مرحلة ما بعد قبض الاجر . وهنا ايضا ، « انت حر » . اي ان لك مطلق الخيار في ان تدخر اجرك ( ان بقي لك من ذلك الاجر شيء بعد سداد ثمن الطعام والمسكن والملبس ) او تنفقه على « قضاء وقت طيب » . ورحم الله المثقف الانجليزي العظيم الدوس هكسلي . فقد تراءت تلك الصورة عينها ، بكل صفاقتها ، منذ بضعة عقود ، في روايته التي يتحقق الان كل ما كتبه فيها : « عالم جديد شجاع » . وكل ما هنالك من اختلاف بين الواقع الماثل وبين رؤية هكسلي ان الناس في روايته « ينتجون » صناعيا في انابيب الاختبار ( وحتى هذا التخليق الصناعي للكائن الانساني في انبوبة الاختبار بدأ العلم من بضعة سنوات يحققه ) ويكيفون من مبدأ امرهم ليشب الواحد منهم مهندسا او عالما او حاكما او جنديا او مجرد آلة بشرية عاملة . وحقيقة انه ما زال بيننا وبين انتاج تلك التصنيفات معمليا بعض الوقت ، الا ان المجتمع الصناعي يمارس ضبطا لا يقل فعالية عن الضبط المعملي في انبوب الاختبار ، بحيث يكاد يكون مقضيا على الفرد ( باستثناءات محدودة ولا تشكل قاعدة ) ان يشب ويقضي بقية حياته مستهلكا درجة عاشرة او مديرا من مديري المجتمع ، مخلوقا « فكة » كالبنس والنصف بنس ، او انسانا « صفوة » كالجنيه الذهب . الا انه فيما خلا ذلك تكاد الوقائع تكون مطابقة لتخيلات هكسلي . فجنبا الى جنب مع القدر اللازم ( والذي قد يزيد وقد ينقص من هذا المجتمع الى ذاك ، الا انه لا مهرب منه ) من « الهندسة » الاجتماعية والضبط الاجتماعي ، يوجد ذلك القدر الذي تراءى لبصيرة هكسلي من عشرات السنين من « التخدير » الذي يبدو انه لا مهرب منه ايضا في تلك المجتمعات التي مهما قيل فيها فانها اعتسافية : التخدير للكتل البشرية المكونة من الارقام عديمة الوجوه القابلة للاستهلاك الفوري والاستبدال ، ابقاءها في حالة هدوء وسكون وانصياع . وهناك مجتمعات تفعل ذلك عن طريق التخدير بالشعارات والاحلام البلهاء ( كحكاية المجد والخلود ) ويتواكب فيها القمع والطغيان مع غسيل المخ والهوس « الديني » الايديولوجي او غير الايديولوجي ، وهناك مجتمعات اخرى ، كهذا المجتمع البريطاني يحل فيها وهم « الحرية » وسعارات الجسد محل « المجد والخلود » كعقارات تخدير .

وقد اطلق هكسلي على عملية التخدير الشاملة المستمرة هذه اسما عاما معبرا بحق هو « قضاء وقت طيب » ، ولم يكتف ــ في استشفافه للواقع ــ بالوقوف عندها ، بل احتاط مديرو المجتمع في روايته ، خشية الا يكون ذلك المهدىء كافيا ، فاخرجت معالمهم للمستهلكين عقار « السوما » الذي يعزل من يتعاطاه عن توترات الواقع وصراعاته المثيرة للقلق ويجعله ــ لمدى ساعات ــ في حالة بلهنية كاملة . ولا ننسى ان ذلك المثقف العظيم كان من اوائل من فطنوا الى خطر ذلك النوع من التحكم الكيماوي في الوعي الانساني ، وعندما اكتشف العلماء في وقته عقار « المسكالين » ، الذي استخرج من نوع من انواع الصبار ، جربه على نفسه وسجل تلك التجربة الرهيبة في مقال بعنوان « ابواب الادراك » . واليوم نشهد تعايش الانتشار شبه العلني لعقارات الهلوسة والمخدرات ، بل وبدايات السماح بتعاطي انواع منها قانونا في بعض المجتمعات الصناعية ، مع ذلك النوع الاخر الاكثر انتشارا وفعالية من التخدير المتمثل في ادوات التوصيل الجماعي كالتليفيزيون والسينما .

وانت عندما تتابع عن كثب عملية التفسخ والتحلل الانساني التي لا تتوقف في النسيج الحي للمجتمعات الصناعية . وتحس النبض المحموم الذي لا يهدأ لحظة لحياة الفرد فيها وهو غارق في عزلته ، مهدد بالانهيارات العصبية ، وبكل ما يضمه القاموس الطبي لتلك المجتمعات من امراض الحضارة ، تستطيع ان تدرك لم يقبل ذلك الفرد بكل هذا النهم على وعاء « الاوقات الطيبة » بكل ما قد يكون فيه من اوساخ ممخطة . وبالحقيقة ما حيلته ، ذلك المستهلك ، وكل اجهزة الاعلام والتوصيل والاعلان تدق رأسه طوال ساعات يقظته لتقنعه بالمباهج التي لا تتصور التي تنتظره على بعد خطوة واحدة فقط لتملأ له حياته الكالحة بالمتعة والمغزى ، فقط اذا ما تقدم خطوة ، واخرج كل ما في جيبه ، وقفز ، فتحول الى حيوان منحصر ؟ وبهذه الطريقة يتحول الجنس التجاري وتتحول ممارسة العنف بالوكالة الى « طريقة حياة » كاملة .

والذي يلفت النظر في ذلك كله ان احدا ليس بغافل عن شيء مما يجري . وهناك اناس يقومون كل يوم بحملات « صليبية » ضد هذا الامتهان للنوازع الانسانية . خذ مثلا اللورد المثالي الطيب السريرة ، لورد لانجفورد ، ولجنته التي شكلها بمبادرة شخصية منه ، والبحث

الشاسع الذي اجرته تلك اللجنة ، والتقرير الضخم الذي كتبه، عن الانتاج « الفني » المكشوف والعري والجنس وكل ذلك . ما الذي حققه اللورد ولجنته ؟ لا شيء . مجرد اثارة وفتية لنقاش ممتع وحرّيف بعض الشيء ، واقبال منقطع النظير على شراء الكتاب الذي نشر متضمنا التقرير ، باعتباره « ادبا مكشوفا » ! ثم لا شيء بعد ذلك ، اللهم الا بضعة احتجاجات من كتاب وناشرين ، خوفا على « حرية الفكر » لا اقل !

والذي يبدو مؤكدا بازاء كل ذلك ان هناك مصالح معينة وقوية يهمها ان يتواصل مثل ذلك النوع من التخدير ويزداد فعالية والحاحا. وهل هناك ما هو افضل من تحويل دوافع العدوان في نفوس الملايين من المستهلكين الى مسارات كالجنس التجاري وممارسة العنف بالوكالة ؟ هل يخطر ببال انسان عاقل مثلا ان هناك اندية رسمية معترفا بها في الولايات المتحدة تدعى نوادي « ذواقة جرائم القتل»
( « New York's Society of Connoisseurs in Murder » )

والذي لم تقنعه حملة التكذيبات الضارية اللحوحة فيما يتعلق « ببروتوكولات حكماء صهيون » ، الا يكون محقا اذا ما وجد خيوط علاقة قوية بين ما هو معروف من روابط المموّلين اليهود الوثيقة بمنظمات الجريمة التي تديرشركات كبرى للتربح من وراء تجارة الجنس ومطبوعات وافلام الجنس التجاري ،وبين دافع الربح ( الذي جُعِل من المقدسات في المجتمعات الغربية ) وشيء اخر لا يوجد من يجرؤ على مجرد البدء بمحاولة النظر فيه ، هو ما توصي به البروتوكولات من العمل على نشر الانحلال والتفسخ واشاعة البهيمية في مجتمعات الاميين ؟

والطريف في ذلك كله ان اليمين البريطاني ، وقد خسر الكثير من معاركه السياسية ، التقط قضية التسيب الخلقي الذي تدهور اليه المجتمع المتسامح او المتساهل وحاول ان يستخدمها بين ما استخدمه من مساحيق وادهنة تجميلية لاستعادة صباه ( ولو ظاهرا ) ، على البشرة فقط ) واسترجاع بعض جاذبيته لجمهور الناخبين ,اعتباره منافحا عن « القيم » و « الاخلاق » .والاشد امتاعا منذلك ان اليمين البريطاني عندما التقط تلك القضية لم يجد من يطلقه ليلوح بها ويحث الشعب البريطاني على العودة الى درب الفضيلة ومكارم الاخلاق ( الفيكتورية بغير شك ) الا احد عتاة الصهاينة من اعضائه . فالسادة المحافظون ( كغيرهم من « المحافظين » في اي مكان وزمان ) يحبون ان يطالعوا الناس دائما بصورة تقول انهم من شدة « محافظتهم » يموتون شوقا الى المحافظة على الفضيلة والاخلاق العامة ، خشية ان يمسها ضر ، لا سمح الله . لكن ذلك شيء لا هو هنا ولا هو هناك ، كما يقولون ، شيء للاستهلاك العام فقط ، والدعاية السياسية . اما داخلا ، وراء الستار المخملي ، فالله وحده يعلم بما يجري وتتسرب اخباره احيانا الى صفحات الفضائح بالصحف والمجلات .

غير ان هناك احتجاجا من نوع اخر تشهده لندن حاليا : مسرحية للكاتبة كاريل تشرتشل عنوانها « اعتراضات على الجنس والعنف » ، يعرضها مسرح الرويال كورت . والمسرحية كعمل فني ، او حتى كصنعة مسرحية ، ليست باهرة او مثيرة للاعجاب . فهي تكاد تكون عديمة الحبكة عديمة الحدث . ولا ضر في ذلك . فالمسرح المعاصر الف هذا وما هو اكثر منه . وهي بطيئة الايقاع ، خطابية ، تذكرنا في بعض المواضيع باسوأ لحظات برنارد شو الكلامية . ألا انها ، رغم عيوبها الكثيرة ، ذكية ، او قل منبئة عن فطنة مؤلفتها التي قد لا يكون لها في النهاية الا فضل السبق الى التقاط رائحة احتجاج ما قد يفصح عنه الناس في اوربا عما قريب ضد الافراط المبالغ فيه في العري والجنس والعنف . ولو انه حتى ذلك يظل مشكوكا فيه بالنسبة لمسرحية كاريل تشرتشل ، لانها — في نهاية المطاف — لا تفصح عن اعتراضاتها ، وتظل — كبطلة مسرحيتها جول — غامضة مغلقة على اسرارها .

تدور احداث المسرحية على شاطىء من الشواطىء الانجليزية الهادئة التي تبدو دائما مسكينة ومنزوية خجلا لانها في بعد اميال قليلة من الشواطىء الفرنسية التي تخطف البصر . والى هذا الشاطىء المهجور ، في يونيو ( وهو شهر غير مأمون الجانب في بريطانيا، خاصة بالنسبة لمرتادي الشواطىء ) تتوافد الشخوص ، وتلتقي كلها « صدفة » ونحن وهي بمنجاة من زحام المصطافين ، مما يتيح للكاتبة ان تنفرد بها وبنا ، لتناقش الامر معنا .

بطلة المسرحية ، او الشخصية الرئيسية فيها فتاة اوربية للغاية، « متمدينة ، متحررة ، ومتمردة » . ونحن نعلم انها « متمردة » لانها مغرمة بالقاء القنابل ، وانها مفرج عنها بكفالة ، او هاربة من الشرطة، او شيء من هذا القبيل . ونعلم من الحوار والحدث ( الضئيل للغاية ) ان جول هذه لا اعتراض لديها ( بعكس المؤلفة ) على الجنس والعنف ، بل انها منغمسة فيهما الى اذنيها ، وان بدا لها انها على العكس من ذلك تماما ، مما يجعلنا ، في بعض اللحظات ، نتساءل : ترى هل جول — في حقيقة الامر — هي كاريل تشرتشل ؟ وهل كتبت المؤلفة مسرحيتها على سبيل تفحص أعماق الذات ؟ وتتحدد امامنا شخصية جول ( بالقدر الذي تتوصل اليه المؤلفة ) بازاء شخصية اختها ونقيضتها « آني » ، التي تأتي الى ذلك الشاطىء المهجور صدفة وتلتقي بها . ويتضح لنا ان آني تربطها باختها علاقة تكافؤية من حب وبغضاء ، من انبهار وادانة، وبينما تقول عن تلك الاخت انها « اكثر النساء تحررا » نجدها هي « اكثر النساء عبودية » .. لاية اشياء ؟ للاشياء عينها التي تجعل جول متحررة : الجنس والعنف . فهي بعكس جول التي تلقي القنابل ، قد استقرت من قديم في دور الضحية المستغلة من الاخرين ، على المستوى الجسدي ، والمستوى الانساني ، والمستوى الاجتماعي . وبالضرورة ، يمثل الجنس والحاجة المادية المجال الاوضح لما هو واقع عليها من استغلال ، فرب العمل الثري الذي تعمل لديه استغلها في اول الامر جنسيا ، ثم احتفظ بها ، بعد زواجه ، شبه خادمة/عشيقة .

ورغم ان شخصية جول رسمت — فيما يبدو — على خطوط شبيهة بشخصية باتريشيا هيرست ابنة المليونير الصحفي الاميركي هيرست التي اختطفت ( او تظاهرت بانها اختطفت ) في العام الماضي ، وطلبت عنها فدية كبيرة وزعت على فقراء بعض المدن الاميركية طعاما، وانضمت بعد ذلك لخاطفيها علنا لتصبح مقاتلة في صفوف مقاتلي حرب العصابات الحضرية ، رغم ذلك الشبه ، فان الشخصية في مسرحية كاريل تشرتشل تبدو — بالمناقضة لصلابتها وغموضها — منهزمة كاختها آني . والحقيقة ان كل شخوص المسرحية تبدو كذلك : منهزمة ، ومنعزلة ، ومسكينة . والحقيقة ايضا انك — رغم العنوان ، ورغم خطابية المسرحية — لا تعرف طبيعة الاعتراضات على العنف والجنس ، ولا تقف للاحتجاج على هوية محددة . فصاحبتنا جول تحب القاء القنابل ، وتحب ممارسة العنف تجاه الاخرين ، ولكنها لا تعرف لم ، ولا نعرف نحن ايضا لم . كل ما نستطيع ان نتلمسه احساس مبهم لدى الشخصية بان القاء القنابل وممارسة العنف يجعلانها تقضي وقتا طيبا . وكذلك آني ، وكذلك صديقها ، وكذلك ايضا زوج جول الشيوعي ، الذي يبدو لنا في بداية المسرحية ثوريا ممتلئا نيرانا وبراكين ، الا انه قبيل اخرها يخمد ويقول لجول ان القاء القنابل تبديد للطاقة الثورية .فتصب عليه جول جام احتقارها .

لكن المؤلفة تنفذ مسرحيتها بشخصيتين ثانويتين : زوجين من الطبقة المتوسطة ، آرثر ، ومادج . وكلاهما من أواسط الناس بحق ، بالنسبة للوضع الاجتماعي والسن . وتبدو السيدة مادج اشبه بالام « بيب » صاحبة مشية الاوزة في مسرحية يونسكو . ولعلها ، في مسرحية هذه الكاتبة التي لا تبدو على كل ذلك القدر من السذاجة ، انعكاس مسرحي لماح لقطاع من « افاضل الناس » في بريطانيا اليوم ممن فجر الاحباط المتواصل وضيعة الوهم في نفوسهم نوازع فاشية لا

تنكر . فصاحبتنا مادج ناقمة على كل شيء ، منتقدة لكل ما حولها ومن حولها ، ولا ترى علاجا لكل ذلك الا « تطبيق القانون » بكل وحشية ، ومكافحة الجنس ، واشباع رغبة « بنات هذه الايام » في ان يجلدن . اما زوجها ، المستر آرثر ، فشخص شاحب ، مستهلك فئة خامسة فيما نظن ، يجد مهربه وعزاءه الوحيد في قراءة الادب شبه المكشوف المستانس بنهم ، لكن زوجته ما تلبث ان تكتشف الامر وترغمه على حرق هذه الاشياء . وليس التصوير بعيداً عن حالة كثيرين من أفراد المجتمع البريطاني كل ذلك البعد . وحتى الأم « بيب » او مادج ، تواز نهـا المؤلفة بشخصية سيدة متقدمة في السن تدخل المشهد بطريقة شاردة الذهن فلا تبقى فيه الا ريثما نعلم من مناقشاتها مع كل من تطاوله يداها انها باحثة باستماتة عن تجربة جنسية ضائعة .

واياً كان القول في « اعترافات » كاريل تشرتشل ، فما من شك في ان آلاف النسخ من شخوصها الباهتة هذه تتراءى لعينيك في شوارع المدن « غير الحقيقية » وصدورها تزفر تلك التنهدات القصيرة المتباعدة ، وهي ذاهبة تبحث عن لحظة اثارة عابرة تستهلكها في مرقص او مشرب او دار سينما ،عن لحظة حياة بالوكالة ، أو شخصية موهومة على الشاشة تتقمصها .

## اثارة اكثر ومشاعر انسانية اقل

تعرض دور السينما بلندن ، منذ عدة اسابيع ، قد تطول الى شهور ، ثلاثة افلام من نوع جديد يبدو ان صناعة السينما اكتشفت ( في معرض محاولاتها المستميتة للتملص من قبضة الازمة المالية الخانقة التي تعانيها ) انه يجد قبولا خاصا لدى المستهلكين لانه يشبع فيهم نزوعاً مازوخيا ما ، ونعني به افلام الكوارث الكبرى . والطريف ان اجتياح ذلك النوع الجديد من الافلام يتواكب مع تحقيق تنبؤ اخر من تنبؤات آلدوس هكسلي . ففي « عالم جديد شجاع » تنبأ الكاتب بان الافلام ستتحول في وقت ليس ببعيد الى ما اسماه بالتجسيد الحسي ( feelies » ) بحيث لا يقتصر اغراق المتفرج فيما يشاهده على تقمصه للشخوص وايهامه بانه يعيش الحدث ، بل يتسع ليشمل التوصيل الحسي الفعلي لمشاعر الشخوص المعروضة على الشاشة اليه، اليكترونيا . ولقد كانت الخطوات الاولى في ذلك الاتجاه تطوير العرض السينمائي ليشمل ما اسمي بالسينما سكوب ، والصوت المجسم ، ومحاولات السينيراما . وفي فيلم « زلزال » ، احد افلام الكوارث المعروضة الان بنجاح كبير في لندن ، تحقق اختراق اخر يقربنا خطوة اخرى من التجسيد الحسي الكامل الذي تصوره هكسلي وقال انه سيشمل حتى نقل الروائح من المشهد السينمائي الى المشاهد . والخطوة التي تحققت في فيلم « زلزال » ما زالت فجة وقاصرة ، لكنها خطوة على الطريق « الصحيح » ، ان صح التعبير . فانت تحس فعلا انك في زلزال ، وتشارك الشخوص ورطتها ورعبها ، لا عن طريق التقمص فحسب ، بل وحسيا ايضا . وبطبيعة الحال يكفيك ذلك ، فلا تذهب لتبحث عن حبكة رائعة أو « سينما » جيدة . وغير « زلزال » ، تعرض دور السينما بلندن فيلم « الجحيم في الطوابق العليا » ، عن حريق في دور علوي بناطحة سحاب يحاصر فيه عدد كبير من الناس ، ويجتر السيناريست في الفيلم العديد من الاجتهادات السابقة في افلام عديدة حوصرت فيها الشخوص في ورطة ما وراحت الكاميرا تصول بينها وتجول « لتنفذ » ــ من خلال لحظة الازمة ــ الى اعماقها وتكشف معايبها ومآسيها . غير ان ذلك الترف ( تصوير الشخوص Characterization ) يبدو من الواضح انه ثانوي للغاية بجانب عناصر الاثارة والابهار في الموقف ، وهي اثارة تتقاسم بطولتها النار المشتعلة والشجاعات والبراعات الميكانيكية الفردية الاميركية للغاية . وفي مدار الشجاعات والبراعات الفردية الاميركية ايضا فيلم « المطار ١٩٧٥ » ، ثالث افلام الكوارث وتقوم فيه مضيفة الطائرة بقيادتها بعد فناء هيئة القيادة ، تساعدها في ذلك الارشادات والبطولات الاتية من الارض . وبصرف النظر عن عناصر الاثارة والابهار وشد المتفرجين وافراغ جيوبهم عن طريق اشباع نوازعهم المازوخية ، لا تفوتنا سمة مشتركة في الافلام الثلاثة : التركيز على ارادة البقاء ( survival ) وابراز ما يمكن ان تحققه البطولات الفردية والبراعات الفردية ( بالمفهوم الاميركي ) في ذلك المجال ، مهما كانت الصعاب والاهوال .

ومرة اخرى نرجو ان يسمح لنا القارىء بالعودة الى صاحبنا هكسلي ، فالسينما اليوم تحقق بحذافيره تنبؤا اخر من تنبؤاته بعد ان حققته الرياضة .

في روايته « المستقبلية » وصف هكسلي تطور التنافس الرياضي الى حروب صغيرة بالسلاح الابيض وغيره على ساحات الالعاب الرياضية بين الفرق « المتحاربة » لا المتنافسة . ولقد فعل الرومان ذلك قديما، لكنهم كانوا يلهون بالتفرج على عبيدهم واسراهم ومصارعيهم المأجورين وهم يقتلون بعضهم بعضا ، اما ساحات « المصارعين » المعاصرين التي تراءت لهكسلي فشيء اخر يعبر عنه ، ربما ، فيلم نورمان جويسون ( مخرج فيلم « في لهيب الليل » الذي مثله رود شتيجر منذ سنوات ) الجديد ، واسمه « الكرة الدوارة » ( Rollerball ) . وفيلم جويسون يجسد ببساطة اتجاهات العنف المتزايدة في الرياضة اليوم. وقد اخرج فيلمه في ملعب كرة السلة الكبير باستاد ميونيخ الاوليمبي، اخذا عن قصة قصيرة نشرت بمجلة « اسكواير » الاميركية منذ سنة تقريبا تنبأ فيها كاتبها ويليم هاريسون ، استاذ الكتابة الخلاقة بجامعة اركانساس الاميركية ، ( دون ان يذكر شيئا عن الدين الذي يدين به بلا ادنى شك لهكسلي ) ، بان النوع البشري ( المتقدم ) سيكون قد توصل ، خلال وقت لن يطول ، الى تحقيق كل ما ظل يحلم به من ضروب الترف المادي والرفاهية الحسية والرخاء والوفرة في اطار مجتمع منظم منضبط ( منضبط اكثر مما يجب ، فيما نخشى ) . غير ان كل ذلك الرخاء والانضباط سيجعلان ذلك النوع البشري المترف ( المتقدم ) مفتقرا الى شيء هام بالنسبة الى البشر كبشر : منفذ لتفريغ شحنة العدوان . والكاتب الاميركي اكاديمي المران على حق . ففي ذلك المجتمع المتقدم الذي يتصوره في المستقبل القريب، والذي نعتقد انه سيكون « متمتعا » بحكومة عالية تحكم قبضة القانون والنظام عليه ، ستنصبح الجرائم والحروب والمذابح وما اليها عزيزة المنال ، ما لم تكن باذن من « المجتمع العالمي » . ولذلك سيعاني اهل ذلك العالم المستقبلي المتقدم المتخم بالترف المادي من حرمان ذي نوع جديد على البشر ، الحرمان من منافذ اشباع نوازع العدوان ! ولنتوقف هنا لحظة ، فنلق باسماعنا لرجل حجة في ذلك المجال : سيجموند فرويد . يقول فرويد في كتابه الممتع « الحضارة وادواؤها » انه ما من شك في ان الانسان ذئب لاخيه الانسان . وكقاعدة ، تتربص تلك العدوانية المتسمة بالقسوة تحت السطح منتظرة استفزازا ما يتيح لها ان تنفجر، او ينفد صبرها ، فلا تستطيع الانتظار ، وتضع نفسها في خدمة غرض ما يكون من الواضح تماما ان الاهداف التي ينطوي عليها يمكن بلوغها بغير عدوان وبوسائل اكثر مسالمة . غير انه ــ نتيجة لنوازع العدوان المتأصلة في نفوس البشر ــ لا يكون الاخر بالنسبة اليهم مجرد شخص يتعاونون معه ويجعلونه موضوعا لرغباتهم الجنسية فحسب ، بل شخصا يغريهم ــ بمجرد تواجده ــ باشباع عدوانيتهم فيه ، باستغلال قدرته على العمل ، دون ان يعطوه اجرا ان استطاعوا ، او باجر ضئيل لا يكافيء عمله ما استطاعوا ، باشباع شهواتهم الجنسية فيه بغير موافقته ، بالاستيلاء على ممتلكاته ، باذلاله ، بايلامه ، بتعذيبه ، وبقتله . فاذا ما اتيحت لتلك العدوانية الفرصة واختفت او قلت الضوابط التي تكبح جماحها ، انطلقت معربدة ، معبرة عن نفسها بتلقائية كاملة ، لتكشف عن كون الانسان حيوانا مفترسا لا يطوي جوانحه على اي تراحم حقيقي او اعتبار لبني نوعه . ويذهب فرويد من ذلك الى القول ان ذلك الميل الى العدوان يعتبر عاملا هاما من

العوامل التي تهدد المجتمع المتمدين بالتفكك والانهيار ، ولذلك فان الحضارة تضطر الى بذل اقصى طاقاتها لكبح جماح نوازع البشر العدوانية .

ومن الوسائل التي تلجأ اليها الحضارة في ذلك المجال « تحويل العدوان » ، أو اتاحة الفرصة لاشباعه في مجالات تمارس عليها المجتمعات ضبطا مستمرا وتحكما لا يغفل لحظة . من تلك المجالات الرياضة بما فيها من عناصر التنافس وتفريغ الشحنة العدوانية والطاقة الجسدية . وبازدياد نوازع العدوان قوة وشراسة ، تتخذ مسارات التفريغ من خلال الرياضة اتجاهات اكثر عنفا وشراسة . بل ويمكننا القول ـ مع تحفظات بسيطة ـ ان « المجتمع المتساهل » فيما يتعلق بالجنس والتركيز على مباهجه ، ليس الا محاولة اخرى لتحويل العدوان في المجتمعات المتقدمة التي تنفجر فيها باستمرار مثيرات جديدة لمزيد من العدوان . وما افلام الجنس التجاري والعنف الا ضرب من ضروب ذلك التحويل ، اذ يتيح ذلك النوع من الافلام لاعداد متزايدة من البشر ممارسة انواع مخففة من العدوان الجنسي واعمال العنف بالوكالة ، من خلال الايهام والتقمص . ويقول جويسون ان فكرة فيلمه الاخير واتته بعد ان قرأ قصة الاستاذ الاميركي ، وشاهد مباراة لهوكي الانزلاق على الجليد بنيويورك في مطلع سنة ١٩٧٤ . فقد لفت نظره العنف الشديد الذي التزمه اللاعبون واثار لدى عشرات الالوف من مشاهدي المباراة شيئا اشبه بالهستيريا . وعندما بلغ عنف المباراة ذروته ، وسالت الدماء بوفرة فخضبت جليد الملعب بحمرتها القانية ، ووصل جمهور المشاهدين الى حالة باتوا فيها اشبه بحيوان خرافي له عشرات الالاف من الرؤوس قد بلغت كلها قمة المتعة وارتوت ، احس الفنان ان ذلك بالذات هو مـا جاءت تلك الالاف في طلبه ، وعندها عاودته فكرة القصة ، وتراءت له فكرة فيلمه . وقد اختار جويسون لفيلمه سنة ليست بعيدة كثيرا : ٢٠١٨ ، وهي سنة يقول الفيلم (الذي لم يجز للعرض العام في بريطانيا بعد ) ان فكرة القومية ستكون قد اختفت فيها من العالم تماما بعد ان تكون الدول قد افلست واحدة بعد الاخرى . واختفت الحريات الفردية في ظل حكومة عالمية ، وباختصار ، تحقق كابوس « العالم الجديد الشجاع » الذي تراءى لبصيرة هكسلي منذ عقود . ويدور الفيلم حول بطل سباق بالدراجة البخارية ( الحصان العصري بالنسبة للشباب ) . غير ان هذا السباق لا يجري على طرق ممهدة ، بل في حلبة ملعب دائرية مغطاة بالجليد . ويشترك في « المباراة » نوعان من اللاعبين : رياضيون يرتدون احذية الانزلاق على الجليد ، وعدد من راكبي الدراجات البخارية . وتبدأ المباراة باطلاق كرة حديدية مربوطة بسلسلة ، تدور حول الحلبة بسرعة ١٢٠ ميلا في الساعة ، وينطلق اللاعبون ، مرتدين خوذاتهم وثيابهم المبطنة كثياب لاعبي الرجبي والبيزبول ، وراء الكرة ، ليدخلها هذا الفريق او ذاك في مرمى الاخر ، وهو على شكل نفق ممغنط . ولا توجد في اللعبة قواعد او ضربات ممنوعة . فكل شيء مباح . واللاعبون يتماسكون بالايدي ويتضاربون بايديهم التي تغطيها قفازات فولاذية كفرسان العصور القديمة ، او يدهمون بعضهم بعضا بالدراجات البخارية . وباختصار ، تسيل الدماء فتغطي ارض الملعب ، وتعوي الالاف التي تشاهد المباراة من فرط نشوة والتذاذ . ولعل هذه الفقرة من قصة هاريسون توضح الصورة اكثر : « .. ويتماسك اثنان من اللاعبين في عراك شرس ، فيفقد احدهما خوذته بضربة من خصمه اطارت نصف وجهه ، ويقف المنتصر يرتوي من منظر خصمه ، لكنه يقف وقتا اطول مما يجب ، لان احد راكبي الدراجات البخارية ما يلبث ان ينقض عليه فيدهمه ، ويفاطحه على الارض . ووقتها يعلو صراخ جمهور المشاهدين ، وادرك انا ان اللقطة لم تفت مصوري التلفزيون ، وان عشرات الملايين من المشاهدين ، في ملبورن ، ولندن ، وريو دجانيرو ، ولوس انجيليس يستمتعون الان برؤيتها وهم يتلوون من الاثارة في مقاعدهم الوثيرة .. »

هل تعجب اذن لكون افلام « الكونج فو » قد اجتاحت بريطانيا ، خلال سنة ١٩٧٤ ، للموسم الثاني او الثالث على التوالي ، وان ايرادات الشباك التي حققتها كانت من اعلى ما حققه اي نوع من الافلام ؟ والمعروف ان العنف الخاطف الدموي بالغ الشراسة هو السمة الرئيسية لتلك الافلام البلهاء المكرورة التي يجتر فيها المشاهدون المرة بعد المرة الصيحات المتوحشة عينها ، والضربات « البارعة » الخاطفة ذاتها ، والحكاية الهزيلة هي هي : الشرير القوي واعوانه المجرمون ، والبطل الخرافي الفذ الذي يجهز عليهم جميعا بكفاءته ، وشجاعته ، وقوته الخارقة . وتعجب لاناس مفروض انهم بلغوا شأوا عظيما من التمدين والتقدم يذهبون ليجلسوا ساعات باكملها ليرقبوا بافواه مفتوحة ، ولعاب سائل على ذقونهم ، ذلك الهراء الذي تفرقهم به ستوديوهات هونج كونج ! ثم تعود فتذكر الوجوه الفارغة ، والاعين الزجاجية المذعورة من الوحدة والخواء الداخلي ، والتنهدات المتباعدة التي تزفرها الصدور ، فيفارقك عجبك وانت تسمع الآهة الجماعية الراعشة الملتذة والبطل السلولويد صيني الملامح يتواثب كالقرد المدرب في ارجاء المشهد مطيرا الرؤوس والاطراف باقرا البطون بسيفه الرهيب وهو يطلق صيحات تشيب لهولها الولدان ، وتختلس النظرات في العتمة الى ما حولك فتجد « كل الاحبة اثنين اثنين » فتى في حضن فتى ، وفتاة في حضن فتاة ، والاعين مشدودة الى الشاشة ، ربما بنظرة فيها ومضة حياة لن تدوم الا لحظة .

فاذا ماخرجت من ذلك الجحيم الصناعي ، دهمك اعلان بعرض حائط عليه صورة امرأة مرتدية لباس استحمام يكشف عن مساحة لا بأس بها من مؤخرتها ، وامرأة اخرى نصف عارية تتسلق حائطا او شجرة ، وجيمس بوند العتيد ، بمسدسه لصق خده ، وابتسامته المستهترة بكل المخاطر ، العارفة بكل ما هنالك ، التي رأت كل شيء وعرفت كل النساء ، وفي مركز الاعلان مسدس ذهبي في حجم مدفع مصوبا الى مركز الاشياء . ولقد احس منتجو هذا النوع من الافلام انها بدأت تبوخ ، وفطنوا الى آن ما بها من سخف بات قريبا للغاية من السطح ، فلجأ مخرج اخر افلام بوند « الرجل ذو المسدس الذهبي » الى شيء من التهريج والهيومر ، واخذنا من كباريهات بيروت ، حيث يضرب البطل بوند احد القبضايات اسمه « اخمد » ضربا مبرحا ، انتقاما منه لازمة النفط ربما ، الى جزيرة في بحر الصين اقام عليها جاسوس دولي مولدا ضخما رهيبا للطاقة من الشمس . واثناء الحوار يقول بوند لخصمه ، قبل ان يقتله وينسف له مولده : « لا بد ان شيوخ النفط على استعداد لان يدفعوا لك ملايين عديدة لكي تكف عن تنفيذ مشروعك هذا » . وكأنما احس منتجو افلام بوند بالغيرة من افلام الكونج فو ، لان لقاء يختلق في الفيلم يحطم فيه بوند مصارعي الكونج فو ويمحقهم !

فاذا ما خرجت من معمعة بوند التي تتحول فيها السيارات الى طائرات تحلق في عنان السماء ، نادتك عشرات من دور السينما على مداخلها صور ملونة كبيرة لنساء عاريات ينظرن اليك نظرات اغراء وغواية ، تحتها عناوين كهذه : « فراش الخطيئة » « انا احب الفتيات اللاتي يفعلن ذلك » ، « مضيفات الطيران يفعلن ذلك كل يوم » ، « سيلستين ، فتاة في خدمتك » .

فان لم تكن ممن يجتذبهم هذا النوع من الافلام ، تهافتت على اجتذابك عشرات من افلام القتل والجريمة ، وانجحها في لندن منذ اسابيع عديدة فيلم « جريمة قتل باكسبريس الشرق » الذي كتبت قصته آجاثا كريستي ، فان لم تكن براعات هركول بوارو ( البوليس السري ) تهيىء لك اشباعا او تزودك بمتعة ، وجدت عشرات افلام « الرعب » ودراكيولا مصاص الدماء تناديك . وقد بدأ منتجو افلام العم دراكيولا بمزجونها بالجنس ، لانها كثرت وباخت .

والحقيقة انه في مجال افلام اللهو والامتاع لم يعد هنالك ما

يستحق المشاهدة في لندن ( وبالحقيقة في معظم العواصم الاوربية ) الا افلام الرسوم المتحركة وافلام والت ديزني . ومن النوع الاول اخرجت استديوهات السينما الفرنسية فيلما رائعا يعتبر عملا فنيا بحق بعنوان « الكوكب الخرافي » ، ومن النوع الثاني اخرجت ستوديوهات والت ديزني فيلما اشبه بحكايات جول فرن ، بعنوان « جزيرة في قمة العالم » ، وما من شك في ان مشاهدة الفيلمين تبدو ، وسط الجو الخانق لافلام الجنس التجاري والموت والقتل والاشباح والرعب، اشبه بنسمة نظيفة عذبة من هواء طلق نقي .

ولنترك الفيلمين ليكونا استهلالا لحديث الشهر القادم الذي نستعرض فيه معا عددا من الافلام الحقيقية ( ومعظمها وافد من القارة ) كفيلم « الاكلة الكبرى » ( La Grande Bouffe ) ، وفيلم« الخوف ياكل الروح » ، وفيلم فلليني الاخير « انا اذكر » ، وبضعة افلام جيدة اخرى ما من شك في انها السينما الحقيقية الوحيدة التي استمتع بها المشاهد السوي في موسم السينما بالعام الماضي .

لندن

# الاتحاد السوفياتي

## « بطاقة شخصية » لمعين بسيسو

صدر في موسكو ، عن دار « العلم » ديوان شعر لمعين بسيسو ، الشاعر الفلسطيني المعروف . وفيما يلي نقدم للقارىء تحليلا ادبيا لهذا الديوان ، كتبه البيرت بريخودكو ، كما اوردته وكالة انباء نوفوستي .

* * *

ان معين بسيسو ، المواطن الفلسطيني ، هو احد الشعراء المعاصرين العرب الاكثر شعبية . وشعره متنوع ، تتلألأ فيه وتسطع شتى المعاني الانسانية بجميع الوانها : المناجاة الحارة عن الحق والحقد ، وعن النضال والحرية ، هذه المناجاة تتعاقب عنده مع الافكار الرزينة الهادئة عن معنى الحياة ، وعن الوطن وعن المستقبل وعن الانسان والانسانية .

ان شعر معين بسيسو هو انعكاس لاغوار نفسه العميقة ، وهو شعر يتميز ببداهته فهو يسري على لسانه عفو الخاطر ، وهو شعر يثير دهشة القارىء ، ولا يتركه غير مبال .

ان قصائده مفعمة بالموسيقى والجرس العذب الحار الذي يسحر الانسان ويشحذ كل انتباهه . واني لاتذكر يريفان في ايلول عام ١٩٧٣ حيث عقدت ندوة شعراء افريقيا واسيا ، وحيث تحدث بحماسة عن دور الشاعر بوصفه انسانا مبدعا ، في النضال الذي يخوضه الشعب العربي الفلسطيني في سبيل حقوقه ، وتقرير مصيره بنفسه .

مئة شتاء قد مر وما زال مصلوبك يا وطني يحلم ،
لو تلمس قدماه ، الارض النائية كنجم ،
لو يمشي ، لو يسمع وقع خطاه ...

« الى طفلتي دالية »

ان الشعر بالنسبة الى معين بسيسو هو موسيقى تستقي لحنها من اعماق القرون ، قرون تاريخ الشعب ، وهي تعبر عن حكمة الشعب، وطموحاته وحبه وغضبه . والشعر بالنسبة الى معين بسيسو هو نشاط ثوري وتحرري ، يعزز ويؤجج لهيب النضال الشعبي .

اخي أو شحذوا السيف على عنقي فلن اركع .
ولو في فمي الدامي حبال سياطهم تنقع
فلن ارجع عن فجري ، لن ارجع ، لن ارجع
وقد اوشك ان يطلع ، قد اوشك ان يطلع
من الارض التي من ثديها بركاننا يرضع .
اخي ، لو جرني الجلاد قدامك للمذبح
لكي تركع ، ترجوه بان يعفو وان يصفح
اخي ، ارفع راسك الشامخ كي تشهدني اذبح
لكي تشهد جلادي ، والسيف الذي يرشح
اخي ، من يفضح الجلاد ، غير دمائنا تفضح .

« السيف على العنق »

ان الشاعر يغني للصلابة والصمود ، وللقوة وللنفس الابية ، ولارادة ابطال الشعب العربي الفلسطيني من اجل الحرية . وسعادة والام هذا الشعب الباسل ، همومه وامانيه ، هي الموضوع الرئيسي في قصائد فنان الكلمة الشاعر معين بسيسو .

يا وطني اين الاغنية تساق ؟ خيط من دمك الخفاق يراق
من اجلك شلال مرايا صفر ، يتكسر في وجهي ،
شلال مرايا سوداء ، من اجلك اقحم اسواري ...
من اجلك ارجم بالنار ... من اجلك احمل اغلالي
من منفى الارض كجوال من اجلك ، خبزي بدمائي
والوجه المشحوذ كتاب في ظلي غرز واشعاري ...

« الاغنية المصوبة العينين »

ان معين بسيسو شاعر اممي ، وهو بعيد كل البعد عن ضيق ومحدودية الشوفينية . والشعر بالنسبة اليه اداة ثورية في يد الشعوب ، في كل مكان يجري فيه النضال ضد اعداء الانسانية ، النضال ضد الاستعمار والطغيان ، ضد التمييز العنصري ، ضد الاستغلال والاضطهاد . والانسان السوفياتي لا يستطيع ان يقرأ دون انفعال شعر معين بسيسو المكرس لاطفال لينينغراد ، الذين عرفوا معنى الحرب والحصار . كما ان اليوناني ، وهو يقرأ تلك السطور المكرسة لسجناء بلاده ، اخوان الشاعر في النضال ضد قوى الظلم والطغيان في القرن العشرين ، لا يمكنه ان يقرأها دون ان تدمع عيناه ، وهو يذكر بالتالي تلك السنوات المظلمة لحكم « الجنرالات السود » .

ويشدد معين بسيسو عندما يتحدث عن هذه القوى السوداء ، لان الامر لا يتعلق بالقومية التي تنتسب اليها هذه القوى . فليكن هذا فاشيا من الفريق الهتلري الخاص ، او شرطيا عنصريا تابعا لنظام جمهورية جنوب افريقيا ، او جنديا تابعا للبنتاغون ممن دمروا قرية سونغ في الفيتنامية ، او محتلا اسرائيليا ، او من مؤيدي الطغمة العسكرية في تشيلي . فالمهم هنا طبيعة هذه القوى الاجتماعية ، المهم هو انا ، انت وهو .

ان الشاعر معين بسيسو هو دائما مع الانسانية المناضلة ضد الشر الاجتماعي ، وفي سبيل القيم الخيرة . وشعره دائما الى جانب النضال المستمر ضد الطغيان والاستغلال ، وفي سبيل بناء مستقبل افضل ونير . ان الجمال مرتبط دائما باخوة الناس وبحرارة العمل الابداعي ، والانسانية وكرامة الانسان ، التي تثور ضد الطغيان وضد الظلم ، والتي لا تتجزأ من معاني واماني المستقبل . ومعين بسيسو يؤمن بان الشعب الفلسطيني البطل سيحرز بنضاله العادل العنيد حقه في تقرير مصيره على ارضه ، وفي سلام عادل يسود ارضه المعذبة .

والقراء السوفيات يعرفون بصورة جيدة هذا الشاعر المرموق ، المفعم بالمشاعر الطيبة والودية نحو بلاد السوفيات ، من خلال العديد مما نشرته الصحف والمجلات السوفياتية بشتى لغات شعوب الاتحاد السوفياتي ، ومن خلال ديوان شعره « فلسطين في القلب » المطبوع عام ١٩٧٠ . واخيرا فان هذه القصائد التي جاءت في هذا المقال ضمها كتاب « بطاقة شخصية » لمعين بسيسو ، هذا الكتاب الذي صدر حديثا في موسكو مترجما الى الروسية بصورة عبقرية بقلم ميخائيل كورجانتسيف الشاعر السوفياتي المعروف .